محاولة العرب المسلمين
كشف منابع النيل
فى القرون الأولى للاسلام

أ. د. عطية القوصى

النهر الخالد .. نهر النيل من الأنهار الهامة التى لقت حبا فى قلوب العرب المسلمين منذ أن وطأت أقدامهم أرض الكنانة ، وكانت له المكانة المقدسة عندهم كما كانت له عند أهله منذ القدم . وزادت هذه المكانة لما ورد عنه من فضائل فى الروايات الدينية الاسلامية المتعددة التى أوردتها كتب الفقه والتفسير وكتب السيرة والتاريخ .

ففى هذه الروايات نرى راووها يعتبرون النيل من أعظم عجائب مصر الظاهرة لأعين الناس ، وانه صاحب الفضل على جميع الأنهار والبحار . وأنه تشرف بذكر الله له فى قرآنه الكريم حين أورد فيه مقولة فرعون مصر « أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى » . وأنه ينبع من سدرة المنتهى بالجنة تبعا لروايات الأحاديث الشريفة التى نقلها كل من البغوى وابن ظهيرة عن كعب الأحبار وانس بن مالك وهما من ائمة المحدثين .

وأبلغ ما وصف به نهر النيل ما أورده ابن فضل الله العمرى فى كتابه مسالك الأبصار(١) ، حيث يقول عنه ما نصه : « هو النهر الأعظم الذى لا يعد له فى عظيم نفعه شىء لعظم ما عليه من البلاد وطوله فى الأمم ، وهو ينصب من جبل القمر وهو احدى الكبر وأولى العبر . آية من آيات الله فى أرضه وعجيبة لمن تأمل من خلقه . ساقه الله تعالى الى مصر وأحيا به بلدة ميتا وسقاه أمة عظمى وان لم تكن هى المتفردة بنفعه فانها كالمتفردة به

---

(١) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، ج ١، تحقيق أحمد زكى ، القاهرة ١٩٢٤ ، ص ٦٧ .

لعظيم منفعتها منه وعميم مصلحتها به . يجيء اليها أحوج ما كانت فى مجيئه وينصرف أحوج ما كانت الى انصرافه ، وذلك تقدير العظيم العليم (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) » .

ولقد تحدث المقريزى عن نهر النيل وفضله فى خططه(٢) تحت عنوان : « ذكر شيء من فضائل النيل » فقال : « أخرج مسلم من حديث أنس رضى الله عنه فى حديث المعراج أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ثم رفعت لى سدرة المنتهى فاذا نبقها مثل قلال هجر واذا ورقها مثل آذان الفيلة قلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذه سدرة المنتهى ، واذا أربعة أنهار : نهران باطنان ونهران ظاهران . فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : أما الباطنان فنهران فى فى الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات » .

وقد لقى نهر النيل كل الاهتمام من حكام مصر المسلمين عبر العصور ، وهو ذات الاهتمام الذى لقيه فى عهد من حكم مصر قبل الاسلام باعتباره واهب الحياة وصانع حضارتها على أرض مصر . وكان من مظاهر هذا الاهتمام الذى شمل النيل فى عهد حكام مصر الاسلامية محاولة معرفة أحوال الزيادة والنقصان فى مائه ، والاطمئنان على وصول ما تحتاج اليه البلاد منه . فأقاموا لذلك المقاييس عليه وعملوا على تجديدها كل مدة(٣) ، وواظبوا على الاحتفال بفيضانه ووفائه بالماء ، واقامة عيد خاص له يخرج فيه حكام مصر المسلمين فى مواكبهم ويشاركون الناس فرحتهم بهذا العيد(٤) ، ويقومون بتخليق المقياس(٥) وتعطيره والتصدق بالأموال شكرا لله وحمدا على نعمة اجراء مائه .

وقد حرص معظم المؤرخين الذين أرخوا لمصر الاسلامية منذ الفتح العربى على ذكر مبلغ الزيادة والنقصان فى ماء النيل عاما بعام فى مؤلفاتهم، نجد ذلك فى كتب البكرى والادريسى والمسعودى وابن خلدون وابن فضل الله العمرى والقلقشندى والمقريزى وابن تغرى بردى والسيوطى وابن اياس

---

(٢) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ ، ص ٤٩ .
(٣) ناصرى خسرو سفرنامة ، تحقيق يحيى الخشاب ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٨١ ، ٨٢ .
(٤) نفس المصدر السابق ، ص ٩٣ — ٩٧ .
(٥) التخليق هو طلاء عمود المقياس بالخلوق وهو نوع من الطيب .

وابن عبد السلام ، الأمر الذى يعكس لنا مدى اهتمام المسلمين بأمر هذا النيل العظيم على مر العصور .

وتحدثت مصادر كثيرة تاريخية وجغرافية عن منابع هذا النهر الخالد ، واجمع غالبيتهم على ما انتهى اليه علمنا الآن عن هذه المنابع ، أن لنهر النيل منبعين أحدهما دائم والآخر صيفى ، وحددوا المنبع الدائم عند خط الاستواء ، بينما حددوا المنبع الصيفى بأنه أمطار بلاد الحبشة التى تسبب فيضان مائه فى فصل الصيف .

ولئن كان ستانلى وسبيك قد نجحا فى كشف منابع نهر النيل فى القرن الماضى ، وأناطوا اللثام للعالم عن هذه المنابع المجهولة ، فلقد سبق الكشافون المسلمون زملاءهم فى العالم الغربى فى مجال الكشف عن هذه المنابع بقرون عديدة . وقد ثبت فى المصادر أن هؤلاء الكشافين المسلمين اخترقوا الصحارى والفيافى والأدغال الافريقية ، منذ القرن الثالث الهجرى/التاسع الميلادى للوصول الى منابع النيل . وانهم دونوا دراساتهم الجليلة فى مؤلفات قيمة أفاد منها السالم من بعدهم وأفاد منها ، دون شك ، ستانلى وسبيك وأقرانهم ممن اهتموا بكشف منابع النيل فى أعقاب عصر النهضة الأوروبية والكشوف البحرية منذ أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر . ولقد بدأوا حيث انتهى المسلمون ، فتضافرت بذلك جهود الفريقين فى كشف منابع هذا النهر العظيم .

وقبل الحديث عن محاولات الكشف الاسلامية نشير الى ما ورد فى المصادر العربية عن أمر هذه المنابع التى اتفق معظم كتابها من أنها تكمن عند جبل القمر الواقعة عند خط الاستواء . ولقد وقع الاختلاف فى ضبط هذه اللفظة وهى لفظة « القمر » ، فضبطها بعضهم بفتح القاف والميم نسبة لقمر السماء لأن القمر لا يطلع عليه لأنه خارج من تحت خط الاستواء كما يقول المقريزى(٦) ، كذلك لشدة بياضه وكثرة ضوئه . وضبطها البعض الآخر بضم القاف وسكون الميم « القمر » نسبة الى قوم يسكنون هناك(٧) .

وقد حددت هذه المصادر مكان جبل القمر أو جبال القمر ، وقالوا أنها

---

(٦) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٥١ .
(٧) ابن خلدون : المقدمة ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٥٢ .

تقع وراء خط الاستواء . واختلف أصحاب هذه المصادر فى تحديد خط العرض الذى تقع عليه جنوب هذا الخط ، فقال ابن مماتى والبغدادى انها تقع وراء هذا الخط باحدى عشرة درجة وثلاثين دقيقة ، وقال المسعودى والأدريسى وابن سعيد الاندلسى وابن خلدون انها عند خط ١٦ درجة جنوبا ، بينما انفرد صاحب كتاب الاستبصار بالقول بأنها تقع عند خط ٩ درجات وثلاثين دقيقة جنـــوبا(٨) .

وقد ذكر ابن خلدون أن هذه الجبال « جبال عظيمة ليس فى الأرض من هو اعلى منها وتخرج من أعلاها عيون كثيرة فيصب بعضها فى بحيرة هناك وبعضها فى أخرى ثم تخرج انهار من البحيرتين فتصب كلها فى بحيرة واحدة عند خط الاستواء على عشر مراحل من الجبل »(٩) .

واتفق معظم الكتاب الأقدمين على ان نهر النيل يخرج من منطقة البحيرات ويمر ببلاد الزنج (السودان) ثم بلاد النوبة ، ثم بلاد مصر ، وتكون نهايته عند البحر الرومى (البحر المتوسط) .وقد أخطأ بعضهم فى تصور أن نهر النيجر يشترك مع نهر النيل فى منبعه . من هؤلاء ابن خلدون الذى زار بلاد مالى بغرب افريقية وأمضى فيها ثمانية أشهر وشاهد نهر النيجر واعتقد انه متصل بنهر النيل . يقول ابن خلدون : « ويخرج من البحيرة نهران يذهب أحدهما الى ناحية الشمال على سمت ويمر ببلاد النـــوبة ثم بلاد مصر فاذا حاوزها تشعب فى شعب متقاربة يسمى كل واحد منها خليجا وتصب كلها فى البحر الرومى عند الاسكندرية ويسمى نيل مصر وعليه الصعيد من شرقيه والواحات من غربيه ، ويذهب الآخر منعطفا الى المغرب ثم يمر على سمته الى أن يصب فى البحر المحيط ، وهو نهر السودان وامهم كلها على ضفتيه ويذهب الى البحر المحيط فيصب فيه عند جزيرة أوليك »(١٠) .

ولقد اكتفى بعض الجغرافيين المؤرخين المسلمين ممن لم يتأكد من حقيقة منبع النيل ومن لم يصدق روايات من قال أنه ينبع من جبال القمر وتأكد من

---

(٨) عبد العال الشامى : مصر عند الجغرافيين العرب ، رسالة ماجستير لم تنشر ، القاهرة .
(٩) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٦ .
(١٠) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٥٠ — ٥٢ .

صعوبة واستحالة الوصول الى هذه المنابع ، اكتفى بالاشارة الى عدم علمه بمكان المنبع ، وقال بعض منهم أنه ينبع من مغارة ، أى من خراب .

يقول الاصطخرى(١١) ، الذى عاش فى القرن الرابع الهجرى : « وأما النيل فان ابتداء مائه لا يعلم وذلك أنه يخرج من مغارة من وراء أرض الزنج لا تسلك حتى ينتهى الى حد الزنج ثم يقطع فى مفاوز وعمارات متصلة الى أن يقع فى أرض مصر » .

ويقول ابن فضل الله العمرى(١٢) : « والأقوال فى أول مجرى النيل كثيرة ذكر منها المسعودى وغيره ما لا فائدة فيه . والشائع على السنة الناس أن أحدا ما وقف على أوله بالمشاهدة وجعل كل واحد منهم سببا لعدم الوقوف على حقيقة أوله . وقال بعضهم أنه لتوغل منبعه فى الخراب المنقطع من وراء خط الاستواء تعذر السلوك اليه لبعد المسافة وشدة الحر » .

ورغم اختلاف الجغرافيين والمؤرخين المسلمين القدامى بصدد تحديد مكان منابع النيل الا أنهم جميعهم اتفقوا على أن للنيل منبعين أحدهما دائم والآخر صيفى ، وأن فيضان نهر النيل فى فصل الصيف يأتى بسبب الأمطار التى تسقط على بلاد الحبشة فى هذا الفصل . يقول البغدادى : « فجرية النيل الأصلية مادتها عيون (بحيرات) وأما زيادته الصيفية فمادتها أمطار »(١٣) . ويقول المقريزى : « ومن تأمل النيل علم أن سيلا سال فيه ، فانه لا يزال أيام الشتاء وأوائل فصل الربيع ماؤه صافيا من الكدرة فاذا فرغت أيام زيادته وكان فى غاية نقصه تغير طعمه ومال لونه الى الحضرة وصار بحيث اذا وضع فى اناء يرسب منه شبه أجزاء صغيرة من طحلب ، وسبب ذلك أن البطيحة التى فى أعالى الجنوب تردها الفيلة ونحوها من الوحوش حتى يتغير ماؤها . فاذا كثرت أمطار الجنوب فى فصل الصيف وعظمت السيول الهابطة من هذه البطيحة فاض منها ما تغير من الماء وجرى الى أرض مصر ، فيقال عند ذلك توحم النيل . ولا يزال الماء كذلك حتى يعقبه ماء متغير ويزداد عكره بزيادة الماء فاذا وضع منه أيام الزيادة شىء فى اناء رسب بأسفله طين ثم يعهد فيه قبل أيام الزيادة وهذا الطين هو الذى

---

(١١) الاصطخرى : المسالك والممالك ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٤٠ .
(١٢) مسالك الأمصار ، ج ١ ، ص ٧١ ، ٧٢ .
(١٣) عبد العال الشامى : مصر عند الجغرافيين العرب ، ص ٧٤ .

تحمله السيول التى تنصب فى النيل حتى تكون زيادته منها . وان العادة أن السيول التى عليها زيادة ماء النيل لا تكون الا عن غزارة الأمطار ببلاد الجنوب وامطار الجنوب لا تكون الا فى ايام الصيف ولم يعهد قط زيادة النيل فى الشتاء . وسبب زيادة المطر هبوب ريح تسمى ريح الملتن وذلك أنها تحمل السحاب الماطر من خلف خط الاستواء فيمطر ببلاد الحبشة والسودان فيأتى ورده الى أرض مصر بزيادة النيل »(١٤) .

ويقول المقريزى فى رواية أخرى : « وزيادة النيل هى من أمطار كثيرة ببلاد الحبشة » ، ويحدد بداية الفيضان فى شهر أبيب القبطى (يوليو) ويقول أن المصريين يقولون اذا دخل أبيب كان للماء دبيب(١٥) .

هذا ملخص لما ورد عن منابع النيل فى المصادر العربية ، ولنا أن نتساءل عن المصدر الذى استقت منه هذه المصادر مادتها عن منابع النيل وعن الباب الذى وصلتهم منه هذه المعرفة ؟ .. هل جاءت حقا عن ارتياد فعلى ووصول الى هذه الأماكن ومشاهدتها بالعين ؟ أم جاءت منقولة عن الجغرافيين الاغريق والرومان الذين حاولوا فك طلاسم منابع النيل قبل ظهور الاسلام بسنين عديدة ؟

للاجابة على هذا التساؤل علينا أن نتتبع أولا الجهود التى بذلها الرحالة والجغرافيون أيام حكم المصريين القدماء والاغريق والرومان قبل الاسلام لكشف منابع النيل . ومن نتاج دراسة هذه الجهود اتضح لنا أن جميع هؤلاء الرواد الذين حاولوا كشف منابع النيل مثل هيرودوت وسترابون وديودور الصقلى وبلينى وسنيك وغيرهم لم يستطيعوا سوى الوقوف عندما القاه عليهم الكهنة عند منابع النيل من أنها مصدر الهى وأنه آت من الظلمات ، ولذلك لم يتجاوزوا فى مباحثة ما وراء الشلالات(١٦) . والى ذلك أشار هيرودوت الذى قال ان النيل يعرف مبدؤه بعد سفر أربعة أشهر سواء أكان ذلك برا أو بحرا وهى المدة التى يستغرقها المسافر للوصول الى أسوان . ومن المعروف أن هيرودوت تتبع فى سنة ٤٦٠ ق.م مجرى النيل قاصدا

---

(١٤) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٦١ .
(١٥) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٥٨ .
(١٦) انطون ذكرى : النيل فى عهد الفراعنة والعرب ، القاهرة ١٩٢٦ ، ص ٩ .

الوصول الى منابعه ولم يتعد فى كشفه الشلال الأول عند أسوان ولم يصل الى هذه المنابع(١٧) .

وكان ملوك الفراعنة : رمسيس الثانى وغيره قد بذلوا جهدا كبيرا من عنايتهم للوقوف على حقيقة منابع النيل فما استطاعوا . وقام ابسماتيك (أحد ملوك الأسرة ٢٦) بتأليف بعثة تكونت من ٢٤٠٠ رجل وأمدها بكل ما تحتاجه لكشف منابع النيل فقضت بعض السنين وعادت دون الوصول الى هذه المنابع . كذلك استحكمت هذه الفكرة لدى الاسكندر المقدونى وقمبيز ورتب كل منهم فى عهده رحلة خاصة وأمدها بكل ما تحتاج للاهتداء لهذه المنابع دون جدوى . وفى القرن الثالث قبل الميلاد كرر المحاولة احد ملوك البطالمة (بطليموس افيرجت) ولم يصل الى شىء . وكان قدماء الباحثين يضربون الأمثال بمعرفة منابع النيل فى استحالة الوصول الى غرض يرضى ويقنع الباحثين .

واستمر أمر منابع النيل غامضا فى عصر الرومان الى أن أرسل نيرون بعثة رسمية لكشف هذه المنابع ، ووصلت هذه البعثة الى منطقة السدود النباتية والمستنقعات فظنوها المنابع الأولى للنيل .

ولقد ادعى تاجر يونانى يدعى ديوجينس Diogenes (١٨) ، عاش فى القرن الأول الميلادى ، أنه قام برحلة وصل فيها الى جبل القمر حيث ينبع النيل ، وقد نقل هذا القول عن ديوجينس هذا الجغرافى ماريانوس ، الذى نقله ، بدوره عنه ، الجغرافى الرومانى الشهير كلاودوس بطليموس ، الذى عاش فى القرن الثانى الميلادى . ويعد كلاودوس بطليموس من أعظم الجغرافيين القدماء ، وقد قام برسم خرائط عديدة للعالم ولنهر النيل ظلت تدرس فى أوربا حتى أواسط القرن السادس عشر(١٩) .

ولقد زعم ديوجينس أنه سافر الى ساحل افريقية الشرقى وأنه توغل فى قلب القارة الافريقية ووصل الى منابع النيل التى وصفها بأنها ينبوعان

---

(١٧) جوزفين كام : المستكشفون فى أفريقية ، ترجمة السيد يوسف ، القاهرة ١٩٨٣ ، ص ١٨ .
(١٨) جوزفين كام : المستكشفون فى أفريقية ، ص ١٩ .
(١٩) محمد عوض محمد : نهر النيل ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ١٠ .

عظيمان يتحدان ويتجهان شمالا ويتصل بهما نهر الحبشة ، وانه فى جنوب الينابيع العظيمة (ويقصد البحيرات الاستوائية) جبال عالية تغطيها الثلوج تسمى جبال القمر . ولقد نقل كلاودوس بطليموس عن ديوجينس وصف المنابع الاستوائية فى خريطة رسمها عام ١٥٠ م(٢٠) .

ويرجع بعض الكتاب فضل المعلومات التى حصل عليها بطليموس عن منابع النيل الى ما جمعه عن الرحالة العرب الذين جالوا حول منطقة المنابع وبالقرب منها قبل الاسلام ، وقالوا انه عن طريق هؤلاء الرحالة والتجار العرب تسربت تلك المعلومات عن منابع النيل الى التجار الاغريق مثل ديوجينس وبطلميوس .

ولقد أكد بعض كتاب المسلمين هذه الجولات العربية عند المنابع قبل الاسلام ، فذكر ابن عبد السلام (ت نهاية القرن التاسع الميلادى) فى كتابه « الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد » أن الوليد آخر ملوك مصر من العرب العمالق (الهكسوس) عن له ان ينظر مخرج النيل فأقام ثلاث سنين يستعد لذلك ثم جمع ما يحتاج اليه واستخلف على مصر احد عماله ويدعى (عون) ، ثم توجه حتى وصل الى منابع النيل وصعد على جبل القمر ورأى كيف ينبع النيل منه(٢١) .

وذكر المقريزى ، نقلا عن ابن زولاق ، أن رجلا من ولد العيص بن اسحق من نسل سيدنا ابراهيم واسمه « حايد » وصل الى تلك المنابع ، وأورد أن حايد هذا كان تاجرا ونبيا وحكيما وأنه سأل الله تعالى أن يريه منتهى النيل فأعطاه قوة على ذلك ، فيقال أنه قام يمشى عليه ثلاثين سنة فى عمران وعشرين سنة فى خراب . وأضاف ابن ظهيرة(٢٢) ، صاحب كتاب الفضائل الباهرة ، عن حايد هذا أنه لما وصل الى مصر قادما من منابع النيل تقابل مع ابى صالح عبد الله بن صالح كاتب الليث بن سعد وانه حكى له ما رآه بصدد منابع النيل وما لقيه فى رحلته .

وأيا كانت صحة الروايات التى وردت فى المصادر العربية عن محاولة

---

(٢٠) جوزفين كام : نفس المصدر ، ص ٢٠ .
(٢١) ابن عبد السلام : الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد ، مخطوطة بدار الكتب رقم ٣٥٥٤٨ ، ورقة ٥ أ ، ٥ ب .

كشف العرب لمنابع النيل قبل الاسلام ومدى اسهام الكشافين العرب فيما وصل اليه جغرافيو الاغريق والرومان من معلومات عن هذه المنابع . فانه من المؤكد أن كشف منابع النيل قد استحوذ على اهتمام حكام مصر الاسلامية ، وان هؤلاء الحكام لم يدخروا وسعا فى هذا المجال بقدر امكانياتهم المتاحة آنذاك لمثل هذا العمل الكبير . وكان ذلك رغبة منهم فى معرفة سر هذا النهر الخالد وأملا فى الوصول الى منابعه حتى يتخذوا السبل الممكنة لتطويع هذا النهر لحاجتهم من مياهه والعمل على استمرارية وصول هذه الميـــاه الى مصر لتستمر حياة دولهم على واديه . ولقد أيقن حكام مصر الاسلامية ، كما أيقن من حكم مصر قبلهم ، أن مصر هبة النيل وان النيل قادر على أن يهلك مصر غرقا أو حرقا .

قال عبد الله بن عمر لقوم من مصر : « انى لأعلم السنة التى تخرجون فيها من مصر ، قالوا له : ما يخرجنا منها يا أبا محمد .. أعدو ؟ قال : لا ، ولكن يخرجكم منها نيلكم هذا ، يغور فلا تبقى منه قطرة حتى تكون فيه الكثبان من الرمل وتأكل سباع الأرض حيتانه »(٢٣) .

ولقد بدأ الاهتمام بكشف منابع النيل فى مصر الاسلامية فى عهد الدولة الطولونية (٢٥٤ — ٢٩٢ هـ) فى منتصف القرن الثالث الهجرى ، فى عهد حكم احمد بن طولون (٢٥٤ — ٢٧ هـ) على حسب رواية المسعودى . فلقد روى المسعودى أن ابن طولون كان على اهتمام وافر بأمر منابع النيـــل ومحاولة كشفها والوصول اليها ، وانه أعد من يقوم بكشفها ووضع الخطة لذلك سنة كذا وستين ومائتين(٢٤) . وأنه أخذ المعلومات الوافية عن هذه المنابع من رجل معمر من الأقباط كان يعيش فى صعيد مصر يبلغ مائة وثلاثون عاما من العمر وكان عالما بأحوال النيل ومنابعه . فسأله عنه واخـلى له نفسه ليال وأيام كثيرة ليسمع كلامه عن النيل ومنابعه(٢٥) .

---

(٢٢) ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، رقم ١٤٦٠ ، ورقة ٤٥ .

(٢٣) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٣٤ .

(٢٤) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، القاهرة ١٩٥٨ ، ج ١ ، ص ١٣٠ .

(٢٥) جلال الدين المحلى : مقدمة النيل السعيد ، القاهرة ١٢٨١ هـ ، ص ١٨ .

ومما يدل على اهتمام ابن طولون بكشف منابع النيل واحتمال ارساله من يقومون بكشفه ، أنه ألف فى عهده كتاب عن جغرافية النيـــل ، مؤلفه مجهول ، ولقد أشار المسعودى الى هذا الكتاب بقوله عنه : « رأيت فى كتاب جغرافيا النيل مصورا ظاهرا من تحت جبل القمر ومنبعه ومبدأ ظهوره من اثنى عشر عينا فتقب تلك المياه الى بحيرتين هناك كالبطائح ثم يجتمع الماء منهما جاريا فيمر برمال هنالك وجبال ويخرق أرض السودان فيما يلى بلاد الزنج فيتشعب منه خليج يصب فى بحر الزنج ويجرى على وجه الأرض تسعمائة فرسخ وتيل ألف فرسخ فى عامر وغامر من عمران وخراب حتى يأتى أسوان من صعيد مصر »(٢٦) .

وجاء اهتمام الفاطميين الزائد أيضا بكشف منابع النيل ، وكان مرد هذا الاهتمام الى سببين رئيسيين : الأول هو الرغبة فى كشف هذه البلاد التى تمتد مع النيل جنوب مصر لنشر الاسلام والدعوة الفاطمية والمذهب الشيعى فيها بعد أن نقلوا دولتهم الى مصر ، والثانى ، محاولة تأمين مصر من خطر النيل وضمان وصول مياهه اليها بعد الجدب الذى تعرضت له البلاد أيام حكمهم سنوات عديدة بسبب نقص هذه المياه ، وبخاصة فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ) .

وقد بدأ الفاطميون اكتشافهم لمنابع النيل منذ قيام دولتهم فى مصر ، ويشهد على ذلك تلك المحاولة التى قام بها الرحالة الجغرافى عبد الله بن أحمد ابن سليم الأسوانى ، المتوفى سنة ٣٨٦ هـ ، بتكليف من الخليفة المعز لدين الله الفاطمى وقائده جوهر الصقلى لكشف منابع النيل .

وابن سليم الأسوانى داعية فاطمى كلفه الخليفة المعز عقب الفتـــح الفاطمى لمصر بكشف منابع النيل والذهاب الى بلاد النوبة والسودان لدعوة مليكها لدخول الاسلام . وقد مر ابن سليم بجميع بلاد النوبة (مملكة مقرة) وعرج على مملكة علوة ووصل الى عاصمتها سوبا (الخرطوم الحالية) ، وحاول التوغل من الخرطوم شمالا فى جنوب السودان ولكنه لم يوفق فى الوصول الى أبعد من الخرطوم . ويحدثنا ابن سليم الأسوانى عن هـــذه المحاولة قائلا بما نصه : « ولقد أكثرت السؤال عن هذه المنابع وحاولت كشفها

---

(٢٦) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٥٢ ، نقلا عن المسعودى .

من قوم عن قوم فما وجدت مخبرا يقول أنه وقف على جميع نهايه هذه الأنهار، والذى انتهى اليه علم من عرفنى عن آخرين أن نهايتها الى خراب »(٢٧) . وقد دون ابن سليم الأسوانى جميع ما شاهده بعينه أو سمع عن النيل ومنابعه وعن بلاد السودان فى كتاب صنفه للخليفة المعز وجعل عنوانه : « أخبار النوبة والمقره وعلوة والبجة والنيل » وأهداه اليه . غير أن هذا الكتاب للأسف قد فقد وجاءتنا أخباره فى مصادر جغرافية وتاريخية كثيرة نقلت عنه ، وحفظ لنا المقريزى فى خططه الكثير مما نقله عنه فيما يتعلق بالنيل وبشعوب البجة والنوبة نقلا حرفيا . كذلك نقل عنه ابن عبد السلام فصلا عن النيل ومنابعه فى كتابه : « الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد » .

وذكرت لنا المصادر التاريخية ومصادر الدولة الفاطمية أن عالما مصريا برز فى عهد دولة العزيز بالله الفاطمى ، ثانى خلفاء الفاطميين فى مصر ، يدعى الحسن بن محمد المهلبى ، قد قام برحلة طويلة فى بلاد السودان بتكليف من الخليفة ، وانه ألف فى سنة ٣٧٥ هـ/٩٨٥ م كتابا فى الطرق والمسالك للخليفة بعد عودته من رحلته ، عنى فيه بتتبع منابع النيل ووصف ما شاهده بصدد هذه المنابع ، كذلك وصف بلاد السودان وصفا دقيقا . ولسوء الحظ أيضا فقد ضاع هذا الكتاب مثلما ضاع كتاب ابن سليم الأسوانى . ولم تصلنا الا معلومات قليلة عنه وعن محتوياته فى بعض المصادر(٢٨) .

وورد أنه كانت للخليفة الفاطمى « الحاكم بأمر الله » ، اهتمامات بنهر النيل ومنابعه ، بعد انخفاض حدث فى مياه هذا النهر فى عهده ؛ فرغب فى تأمين وصول مياه النيل الى مصر . لذلك استقدم من البصرة العالم العربى الشهير « الحسن بن الهيثم » لما بلغه أن له نظرية هامة فى توزيع مياه النيل(٢٩) وعمل بحيرة تخزن فيها مياه النيل بالقرب من منابعه يؤخذ منها الماء وقت الحاجة . لكن هذا المشروع لم يتم لأن ابن الهيثم بعد أن قدم الى

---

(٢٧) ابن سليم الأسوانى : أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل، نقلا عن خطط المقريزى ، نشرفييت ، القاهرة ١٩٢٢ ، جـ ٣ ، ص ٢٦١ .

(٢٨) زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٤٤ .

(٢٩) محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ١٨٠ .

مصر وراجع حساباته مع النيل اكتشف وجود خطأ فى تلك الحسابات فاعتذر للخليفة عن اتمام المشروع .

ولعل أهم تلك المحاولات الكشفية لمنابع النيل التى جرت فى العهد الفاطمى تلك المحاولة التى تمت فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ) ، والتى رواها لنا الرحالة الفارسى المسلم ناصرى خسرو ، الذى زار مصر أيام حكم هذه الخليفة .

يقول ناصرى خسرو : « ويقال أن حقيقة منابع النيل لم تعرف ، وسمعت أن سلطان مصر أرسل بعثة لتتبع شاطىء النيل سنة كاملة ودرسه ، ولكن أحدا لم يعرف حقيقة منبعه ، ويقال انه يأتى من جبل فى الجنوب يسمى جبل القمر» (٣٠) .

وقال الحافظ بن كثير ، عما رواه عن ابن زولاق ، فى تاريخه عن هذه المحاولة الكشفية فى عهد المستنصر أن الخليفة « أمر قوما بالمسير الى حيث يجرى النيل فساروا حتى انتهوا الى جبل عال والماء ينزل من أعلاه وله دوى حتى لا يكاد يسمع أحدهم صاحبه وان أحدهم صعد الى الجبل لينظر فأراد ذلك فلما وصل أعلاه رقص وصفق وضحك ، ثم مضى فى الجبل ولم يعد ، فلم يعلم اصحابه ما شأنه . وفعل آخر مثل الأول فحدث له مثله ، وكذلك ثالث فقال اربطوا فى وسطى حبلا فاذا أنا وصلت الى ما وصلوا اليه ثم فعلت ذلك فأجذبونى حتى لا أبرح موضعى . ففعلوا ذلك فلما صار فى أعلى الجبل فعل كفعلهم فجذبوه اليهم فقيل أنه خرس فلم يرد جوابا فمات من ساعته ، فرجع القوم ولم يعلموا غير ذلك »(٣١) .

ولعل السبب الذى دفع الخليفة المستنصر الى هذه المحاولة الكشفية لمنابع النيل ذلك الانخفاض الشديد الذى تعرض له منسوب النيل عدة مرات لسبع سنوات متصلة فى عهد هذه الخليفة ، مما تسبب فى الضائقة الاقتصادية والمجاعة الشديدة التى تعرضت لها مصر فى عهده ونسبت اليه وعرفت فى التاريخ بالشدة المستنصرية (٤٥٧ — ٤٦٤ هـ) .

---

(٣٠) ناصرى خسرو : سفرنامة ، ص ٨١ .

(٣١) ابن عبد السلام : الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد ، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، ميكروفيلم رقم ٣٥٥٤٨ ، ورقة ١٠ .

ولقد تحدث المقريزى عن هذه الشدة فى كتابه « اغاثة الأمة بكشف الغمة » ، وفى كتابه الخطط ، كما تحدث عنها كل من القلقشندى وابن تغرى بردى ، وأكدوا أن الناس فى هذه المجاعة أكلوا الكلاب والقطط ، ثم تزايد بهم الحال حتى أكل بعضهم البعض .

يقول القلقشندى عن نقص مياه النيل فى عهد المستنصر وما قراه عنه فى كتاب النيل : « أن الماء زمن المستنصر مكث سنتين لم يطلع وطلع فى السنة الثالثة وأقام الى الخامسة لم ينزل ، ثم نزل فى وقته ونضب المـــاء عن الأرض فلم يوجد من يزرعها لقلة الناس . ثم طلع فى السنة السادسة وأقام حتى فرغت السابعة ولم يبق الا صبابة من الناس ولم يبق فى الأقاليم ما يمشى على أربع غير حمار يركبه الخليفة المستنصر »(٣٢) .

ويقول ابو المحاسن بن تغرى بردى : « أن القحط فى أيام المستنصر كان سبع سنين مثل سنى يوسف الصديق من سنة سبع وخمسين الى سنة أربع وستين وأربعمائة ، أقامت البلاد سبع سنين يطلع النيل فيها وينزل ولا يوجد من يزرع لموت الناس . فاستولى الخراب على كل البلاد ومات أهلها وانقطعت السبل برا وبحرا ، وكان معظم الغلاء سنة اثنتين وستين »(٣٣) .

ويتحدث المقريزى تفصيلا عن هذه المجاعة الشديدة التى أصابت مصر آنذاك بسبب نقص مياه النيل بقوله : « وعظم الأمر بالقاهرة ومصر من شدة الغلاء وقلة الأقوات لما فسد من الأعمال بكثرة النهب وقطع الطريق حتى أكل الناس الجيف والميتات ، ووقف ارباب الفساد فى الطريق فصاروا يقتلون من ظفروا به فى أزقة مصر . فهلك من أهل مصر فى هذه الحروب والفتنـــة ما لا يمكن حصره . واستولى الجوع لعدم القوت وصار الحال الى أن بيع رغيف من الخبز وزنه رطل بزقاق القناديل بأربعة عشر درهما ، وبيع أردب من القمح بثمانين دينارا ، ثم عدم ذلك وأكلت الكلاب والقطاط ، ثم تزايد الحال حتى اكل الناس بعضهم بعضا »(٣٤) .

---

(٣٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٢٩٢ .
(٣٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٣ .
(٣٤) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٣٤ — ٣٣٦ .

وواصل الأيوبيون جهود حكام الفاطميين فى محاولة كشف منابع النيل بعد أن ورثوا حكم مصر عنهم . وجاء هذا الاهتمام مع بداية قيام الدولة فى عهد حكم صلاح الدين على يد وزيره العالم القاضى الفاضل (ابو على عبد الرحيم بن الحسن البيسانى) المتوفى سنة ٥٩٦ هـ . ولقد ورد عن القاضى الفاضل اهتمامه بأمر النيل ورغبته فى كشف منابعه(٣٥) ، وكان قد عرف عنه حب الرحلة والاستكشاف وحبه لنهر النيل وتغنيه بأفضاله فى أشعار كتبها عنه ، اقتطف المقريزى بعضا منها وأوردها فى كتاب خططه. ولم تحدثنا المصادر صراحة عن جهود فعلية قام بها القاضى الفاضل لكشف منابع النيل ، ويبدو أن مشاغله الكثيرة فى وقت تطلب التفرغ لمجاهدة الصليبيين حال بينه وبين ذلك .

وجاءت المحاولة الفعلية للكشف فى العهد الأيوبى على يد الملك الصالح نجم الدين أيوب بن السلطان الملك الكامل (٦٣٧ — ٦٤٧ هـ) . وقد ذكر هذه المحاولة كل من المؤرخين علاء الدين بن عبد الله الغزولى (ت ٨١٥ هـ) فى كتابه : « مطالع البدور فى منازل السرور » ، وابن ظهيرة فى كتابه : « الفضائل الباهرة » .

يقول الغزولى فى ذلك بما نصه : « كان الملك الصالح نجم الدين أيوب يشتهى أن يعرف أصل هذا النيل فرسم أن تشترى عبيد صغار زنوج وما شاكلهم جلب لم يستعربوا وسلمهم لصيادى السمك والبحارة ليعلموهم صنعة البحر وصيد السمك وأن يكون قوتهم من السمك لا غير فاذا مهروا تصنع لهم مراكب صغار ليركبوا فيها ويأتوه بخبر النيل »(٣٦) .

ولعل محاولة الملك الصالح أيوب لكشف منابع النيل ، قد جاءت نتيجة لتعرض مصر لانخفاض فى مياه نيلها زمن حكم أخيه الملك العادل سيف

---

(٣٥) محمد حمدى المناوى : نهر النيل فى المكتبة العربية ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٤٦ .

(٣٦) الغزولى : مطالع البدور فى منازل السرور ، ج ٢ ، القاهرة ١٣٠٠ هـ ، ص ٧٤ ، ٧٥ .

— ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ، مخطوطة ، ورقة ٤٣ .

— ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، ج ١ ، ص ٧٢ ، حاشية رقم (١) .

الدين أبو بكر سنوات ٥٩١ — ٥٩٨ هـ ، وما ترتب على ذلك من مجاعة تحدث عن تفاصيلها الرحالة الشهير عبد اللطيف البغدادى ، الذى زار مصر آنذاك (سنة ٥٩٧ هـ) .

وقد تحدث المقريزى فى خططه عن هذا الانخفاض فى مياه نهر النيل فى عهد السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر فقال :

« توقفت زيادة النيل ولم يبلغ سوى ثلاثة عشر ذراعا تنقص ثلاثة أصابع ، وشرقت أراضى مصر الا الاقل ، وغلت الأسعار وتندر وجود الأقوات حتى أكلت الجيف وحتى أكل الناس بعضهم بعضا . وتبع ذلك فناء كبير ، وامتد ذلك ثلاث سنين ، فبلغت عدة من كفنه العادل وحده من الأموات فى مدة يسيرة نحو مائتى ألف وعشرين ألف انسان ، فكان بلاء شنيعا »(٣٧) .

ولم تذكر المصادر التى تحدثت عن دولة الأيوبيين مصير البعثة الكشفية التى أرسلها الملك الصالح أيوب الى أعالى النيل . هل نجح السلطان فى تنفيذ خطته على نحو ما رسم ، أو هل توقف المشروع ولم تصل البعثة الى بغيتها بسبب تعرض البلاد آنذاك لهجوم الصليبيين ، هذا ما لم تستطع المصادر الاجابة عنه وصمتت بمدنا بالمزيد عن معلومات هذه الرحلة الكشفية الهامة لمنابع النيل .

هذا وقد أشار ابن فضل الله العمرى فى كتابه « مسالك الأبصار » عن محاولات فردية قام بها بعض المغاربة فى وقت قريب لتلك الحقبة ، وذكر أن أصحابها بالفعل وصلوا الى منابع النيل .

يقول العمرى : « حدثنى أقضى القضاة شرف الدين أبو الروح عيسى الزواوى أن الأمير أبا دبوس (أبو العلاء ادريس الواثق بالله) ووالده آخر سلاطين بر العدوة من بنى عبد المؤمن(٣٨) . قد وصلوا الى هذه البحيرة (بحيرة فيكتوريا) فى أيام هربه من بنى عبد الحق ملوك بنى مرين القائمين الآن بفاس (سنة ٦٦٧ هـ) »(٣٩) .

---

(٣٧) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٣٤ .

(٣٨) وهو آخر سلاطين دولة الموحدين بالمغرب ، وحكم فى الفترة ما بين ٦٦٥ — ٦٦٧ هـ .

(٣٩) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار ، جـ ١ ، ص ٦٨ .

كذلك يحكى ابن فضل الله العمرى أن الشيخ سعيد الدكالى ، الذى أقام بمالى خمسا وثلاثين سنة مضطربا فى بلادها مجتمعا بأهلها ، حكى له قائلا : « ولقد توغلت فى أسفارى فى الجنوب مع النيل فرأيته متفرقا على سبعة أنهر تدخل فى صحراء منقطعة ثم تجتمع تلك الأنهر السبعة وتخرج من تلك الصحراء نهرا واحدا مجتمعا يخرج من البحيرة الكبيرة »(٤٠) .

فى نهاية الأمر نقول أن العرب المسلمين حاولوا قدر جهدهم كشف منابع النيل فى العصور الاسلامية الوسطى ، وبتوقف محاولاتهم تجمدت هذه الجهود الى العصر الحديث . وظلت منابع النيل لغزا لم يمط اللثام عنه الا فى منتصف القرن التاسع عشر ، على يد بعض الرحالة والمستكشفين الأوروبيين أمثال : بروس وسبيك وجرانت وصموئيل بيكر . ولقد استفاد هؤلاء الرجال، دون شك ، من جهود المستكشفين العرب المسلمين وساروا على نفس دربهم . كذلك استفادوا من التسهيلات التى قدمتها لهم حكومات محمد على واسماعيل وسط أدغال افريقية من مواصلات حديثة متقدمة وغيرها ، والتى لولاها ولولا الأمان الذى وفرته هذه الحكومات لهم لتأخر زمن كشف منابع هذا النهر العظيم الى تاريخ لا يعرف توقيته الا الله .

---

(٤٠) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار ، جـ ١ ، ص ٧٠ ، ٧١.